المسرح التجريبي

صاحب المسرح منذ نشأته نزعة التجريب في أساليب التعبير، و ذلك من أجل بلوغ أفكار جديدة بأشكال تساير المتغيرات التي تطرأ على المجتمع، و لتطوير الاتصال تجاوز الحدود التقليدية، هذا التطور أدى بشكل مباشر إلى خلق آفاق جديدة أمام المسرحيين باكتشاف سبل و أدوات و إمكانيات جديدة في التجسيد الإبداعي و الخلق الفنّي.

مفهوم التجريب (L'expérimentation) :

المفهوم اللغوي:

يتحدد المعنى اللغوي لكلمة" تجريب "من خلال مصدرها الرباعي" تجربة "ففي المعجم الوسيط جاء المعنى "(جربه)تجريباً ، و تجربة، اختبره مرة بعد أخرى، و يقال: رجل مجرب: جرب في الأمور و عرف ما عنده، و رجل مجرب: عرف الأمور و جربها ... و التجربة (في العلم)اختبار منظم لظاهرة أو ظواهر يراد ملاحظتها ملاحظة دقيقة و منهجية للكشف عن نتيجة ما أو تحقيق غرض معين، و ما يعمل أولا لتلافي النقص في شيء و إصلاحه، و منه تجربة المسرحية... " بمعنى النظر في الظاهرة من زاوية أو عدة زوايا من أجل الوصول إلى تفسير أقرب و صائب.

و في لسان العرب ورد ت الكلمة بالمعنى التالي: « جّر ي جّر تجربة و تجريبا الشيء حاوله و اختبره مرة بعد أخرى... وجّر الرجل تجربة: اختبره. و رجل مج بّر: قد عرف الأمور...و دراهم م جّزة موزونة».

المفهوم الاصطلاحي:

استخدم مصطلح التجريبية كمصطلح علمي عند "داروين (Charles Darwin) (1809-1882) في نظريته "التحول"، بمفهوم التحرر من النظريات القديمة قصد اكتشاف الحقائق العلمية الجديدة، يتقاطع مع جملة من المصطلحات مثل: التجربة، الممارسة، الحداثة و الإبداع ...، و قد تم تداول هذا المصطلح في المجالات العلمية قبل مجالات الفن و الآداب و بالتحديد نظرية التحّول و هذا ما يؤكده الناقد (مارتن أسلن) في قوله:"كلمة التجريب مأخوذة في الأساس من العلوم الطبـيعية، و حينما يريد الإنسان أن يعـثر على شيء جديد عل يه أن يُجّرب" .

و قد تكّون هذا الاتّجاه "في نهاية القرن التاسع عش و بداية القرن العشرين وارتبط بمفهوم الحداثة، ظهر في الفنون أولا وعلى الأخص الرسم و النحت بعد أن تلاشت أخر المدارس الجمالية التي تفرض

قواعد ثابتة، وبعد أن تأثرت الحركة الفنية بالتطور التقني الهائل في القرن العشرين، و شهدت نوعا من البحث التجريبي في اتجاه الخروج عن المألوف و السائد".

يقدم إبراهيم حمادة في معجمه تعريفا للمسرح التجريبي يبدو أكثر وضوحا على أنّه " المسرح الذي يحاول أن يقدّم في مجال الإخراج أو النص الدرامي، أو الإضاءة، أو الديكور... أسلوبا جديدا يتجاوز الشكل التقليدي لا بقصد تحقيق نجاح تجاري، و لكن بغية الوصول إلى الحقيقة الفنية"

فهذا المسرح مخالف للأنواع المسرحية الأخرى كالمسرح الأرسطي التقليدي و المسرح التجاري ، فهو يتشابه مع المسرح الطليعي الذي ظهر في مطلع القرن العشرين غير أنّ "القاسم المشترك لهذه الحركات التجريبية كان الرغبة في تطوير العملية المسرحية جذريا، خاصة و أنّ التجريب تزامن مع ظهور الإخراج كوظيفة مستقلة، و مع رغبة المخرجين في تطوير البحث المسرحي بمعزل عن التقاليد و الأعراف.

التجريب في المسرح :

استخدم مصطلح التجريب في المسرح لأول مرة " في سنة 1894 م عندما وصفت صحيفة فرنسية المسرح الحر ل"أندريه أنطوان" (André Antoine) (1858-1943) **بأنّه** مسرح يرمي في المستقبل أن يكون مسرحا تجريبيا" بذلك أنّ المسرح أكثر ارتباطا بالتجريبية لما يتميّز به من تحول و لا استقرار، "و هذا ما يؤكده " باتريس بافيس"(Pavice Patrice) (1947...) أنّ مصطلح المسرح لا يجب أن ينفصل عن التجريب فكل مسرح جدير بهذا الاسم يجب أن يخضع جزئيا على الأقل لنظام تجريب مستمر، و أن لا يقبل أساليب معروفة و مؤكدة النجاح سلفا".

ارتكز التجريب في بداياته حول مكنونات العرض المسرحي الذي تحويه الخشبة من ممثل و سينوغرافيا و جمهور، و قد اجتهد المخرجون المسرحيون- على اختلاف توجهاتهم - في هذا العنصر لخلق أسلوب و شكل فرجوي مخالف للنمط الكلاسيكي، فإنّ ""ق.ستانيسلافيسكي" (K- Staninslavski) (1863- 1938) يؤكد على دور الممثل، أما " آبيا" (A -Appia) فيركز على أهمية الإضاءة، في حين يرى " ب- بريشت" (B- Brecht) أهمية إبراز الطابع التعليمي، أما " جيرزي غروتوفسكي"(Jerzy Grotowski) و " بيتر بروك"(Prook) و " جاك-كوبو"(J- Kopean فقد رجعوا إلى جوهر المسرح من حيث هو علاقة حية بين الممثل و الجمهور" ، أما على مستوى النص الدرامي فقد شهدت فترة الممارسة التجريبية صراعا بين أسلوب النص و العرض في المسرح

الكلاسيكي و بين الرغبة الشديدة في الفصل بينهما في المسرح التجريبي، و إذا كان التجريب مرتبطا بالديمقراطية وحرية التعبير و كذلك الانفتاح على ثقافات الآخرين فإنّ ذلك لا يعني اقترانه بالعشوائية ذلك أنّ الشروط التاريخية والخصوصيات الاجتماعية لها تأثير فاعل في الممارسة التجريبية.

وتميّز التجريب في المسرح بخصائص أبرزها:

– إعادة النظر بشكل المكان المسرحي، بالخروج عن العمارة المسرحية إلى أماكن جديدة تجذب نوعية مختلفة من الجمهو، و الاهتمام بالعلاقة بين الخشبة و الصالة .

–الاستفادة من التقنيات المتطورة في مجال الصوت و الإضاءة.

–إعادة النظر في دور النص الذي اعتُبر مجرد عنصر من العناصر.

–إعادة النظر في الكتابة المسرحية و مكّونات النص خاصة اللغة.

التجريب في المسرح العربي

شهد المسرح في معظم البلاد العربية حالة تجريب واسعة و مستمرة ، إذ حاول المسرحيون كل من موقعه في المجتمع أن يؤقلمه مع الجمهور و متطلباته الفنية و الفكرية، ذلك أنّ « تجارب المسرح العربي كثيرة و متعددة تخضع للمغامرة الإبداعية، و تسعى إلى استدراج المتلقي العربي إلى فعلها المسرحي بالخطاب الجاد» ، و دخل هذا التيار إلى البلاد العربية في النصف الثاني من القرن الماضي عن طريق الاحتكاك بالحركات التجريبية المسرحية الأوروبية، فقد هيمنت « نزعـــة التجريب بصورة متزايدة، و لم تعد تقتصر على فرق صغيرة مستقلة، و إنّما تسللت حتى إلى بعض المسارح الحكومية و فرضت نفسها بقوة» ، بالاعتماد على التراث الزاخر بشتى أنواع الفرجة خاصة «الاحتفالية التي و جد فيها روادها مدخلا إلى ميدان التجريب بحثا عن شكل مسرحي أصيل نابع من صميم الواقع الثقافي العربي» ، فالتجريب يمتلك القدرة على استعاب و توظيف القدرات الفنية لكل من الممثل و المخرج و المتلقي حتى يتّمالتعبير الصادق عن معاناة المجتمعات العربية.